المعرفة العربية بين التأثر والتأثير

أ. الصادق بخوش (جامعي)

يتطلع المرء إلى معرفة الحقيقة بما هي إمكان عند كل مدخل لأحد أغراضها الكثر، ومن مغلقات قضاياها إسهام العرب والمسلمين في الحضارة الإنسانية عامة، و إسهامهم في نهضة أمم الغرب خاصة .

ولئن تبارى كتاب وعلماء و فلاسفة مسلمون أو غيرهم في الموضوع قديما وحديثا ولاسيما المستشرقين فإن الموضوع يظل في تقديرنا منتدى مفتوحا على مجاهل عديدة، وفتوحات بحثية، وتنقيبية كثيرة، يأتزر فيها الباحث بالفرْي في أتون المؤلفات والمخطوطات والحفريات، ثم القراءات المتأنية الحصيفة التي تستبطن ظاهر المعطى وباطنه لاستقراء المكتوم من تراث العرب والمسلمين ؛ هذا التراث الذي أينع نبتا نضيدا في حدائق غيرنا فاستأثروا منه بكل نافع مفيد سواء اعترفوا به أم جحدوه لجدير بإبانته وإثبات حجتنا فيه .

ونُقِرُّ بدءًا، أن هذه الإشكالية، لا تؤخذ بالتهافت، ولا بالارتجال، ولا بالقدح أو المدح بقدر ما تستوجب التحلي بالموضوعية، والبحث المتأني، والكشف الواسع، عما انطمس أو أُغْفِلَ أو جُحد بغيا.

وحتى لا تتفرق بنا السبل، فنتيه في العموميات، أو تأخذنا العزة بالنفس، فنجنح إلى إلقاء جريرة عدم تنويرنا بالحقائق على كاهل غيرنا فنتداعى في إرسال التهم والتلذذ بما يعرف بنظرية المؤامرة، وإطلاق أحكام قيمية لا تأسيس لها، أو نعمد إلى جلد الذات وتعزيرها...الخ .

ونلج موضوعنا هذا من أبواب متفرقة ونحسبها ثلاثة:

1- كيف أخذت النهضة العربية منذ القرن السابع للميلاد من سابقاتها دون عقدة؟
2- ما هي أهم المفاصل المعرفية التي اتخذتها النهضة الغربية من حضارة العرب كرافعة لإقلاعها نحو المستقبل الذي أدى بها إلى ما هي عليه اليوم ؟
3- إقامة مقاربة بين الظاهرتين حول مسألة الاعتراف و النكران .

ونتخذ من مجالات المعرفة الكثيرة بعض أنماطها على غرار :

- الفلسفة
- الفلك
- الحساب والجبر
- الطب والصيدلة
- العلوم الإنسانية
- المنهج

الفلسفة

لن نطنب في عملية ترديد أسماء الفلاسفة العرب ونظرياتهم ومدى تأثرهم بغيرهم لا سيما باليونانيين ممن تعرفوا عليهم من خلال التراجم أو بما توصلوا إليه بأنفسهم من أثر فلسفي بالنسبة للذين خبروا اللغة اليونانية مثل الكندي وابن سينا والفارابي .

وسواء أكان فلاسفة العرب مجرد شراح ومعلقين على فلسفة اليونان المشائية تحديدا أم كانوا مجددين فيها ومضيفين إليها، وربما استقل بعضهم بفلسفة تقابل وتوازن في طرحها القضايا الفلسفية اليونانية برؤية مستقلة وفكر أصيل، يُعبِّر بوضوح عن الذاتية الحضارية العربية وإشكالات عصرها، فمثل هذه المساءلات

لتاريخ الفلسفة العربية، وتميزها واستقلاليتها المبدعة بين مادح وقادح نجد ضمن الفريقين المتجادلين آراء لمستشرقين غربيين، وعرب مسلمين وغير مسلمين كل فريق يعمل على دحض أقوال خصمه، بما تهيأ له من فهمه، وتأويله للنصوص الفلسفية العربية وعلاقتها بالوارد إليها من اليونان.

نتصور بدءا أن البيئة العربية الأولى في الجزيرة العربية -مهد الإسلام- تختلف عن البيئة اليونانية التي نشأ فيها التفلسف فالبيئة اليونانية سكانها " آريون" عاشوا في الجزء الشمالي من البحر المتوسط، عرفوا الشتات بين آسيا الصغرى، وبين بعض جزر البحر المتوسط قبل أن يستوطنوا – يونان الكبرى- ويحولوها إلى منبثق للمعرفة بل للمعجزة اليونانية لا سيما في التفكير في الوجود الشامل وبعلمية ذاك الزمان ، بينما عاش العرب قبائل ممزقة في صحراء مترامية الأطراف ديدنها شظف الحياة، وقسوة الطبيعة، وعسر الارتزاق، مما صبغ وجودهم " بحسية واقعية" نلمسها في أشعارهم الوصفية والغزلية وما إلى ذلك من أغراض الشعر العربي القديم (...)، على عكس اليونانيين السابقين عنهم طبعا، يتّسمون بمخيال خلاق يستنزل المعاني من آلهة الأساطير، وأنصاف الآلهة، ويقيمون الاحتفالات الديثرمبية الموسمية.

ولم يعرفوا التوحيد أوْ الحنفية، فيخففوا عنهم أزر القلق الوجودي، والضلوع في مساءلة الغيب، واكتناه أسرار ما وراء الطبيعة، بل إنهم انخرطوا في التساؤل والتفلسف، ومحاولة إيجاد صيغ معرفية لما في الوجود المتعين والمفارق، بنزعة فردية تشاؤمية، تترجم ضياع الإنسان في هذا الوجود الرحب، دون استدلال بحقيقة ثابتة، فطفق الإنسان عندهم باحثا عن الخلاص أي عن السعادة، فأيْقَنَ أنّ السعادةَ لا تُدْرك إلا بالحكمة (المعرفة).

يقول " الشهرستاني" « لما كانت السعادة هي المطلوبة لذاتها، وإنما يكدح الإنسان لنيلها والوصول إليها، وهي لا تُنال إلا بالحكمة، فالحكمة إما ليُعملَ بها، وإما لِتَعَلُّمٍ فقط [1]»

إذن انقاد اليونان إلى الحكمة ببعديها العلمي والعملي، فأما العلمي فهو طلب الحقيقة [علم الحق] وأما العملي فطلب الخير، ولا تُبلغُ هذه الغاية الثنائية إلا بالعقل (logos) و التفكير المجرد المقنن المحكوم بالمنطق.

فالعقل الذي قام على أنقاض الأساطير في حضارة اليونان، أستأثر بمجامع الموقف الإنساني في الوجود، وعنه استُصْدِرَتِ القيمُ ورُتبت حسب الأولويات فجاء التفكير النظري والتأملي كأرقى الفضائل وأنبلها ودونها التفكير العملي، مادام الأول يتعامل مع ما وراء الطبيعة أي مع الكمال والجمال والخلود، ويتعامل الثاني مع المادي المعفر الفاني.

وتم ترتيب الأفكار تفاضليا، كما المقامات المجتمعية، بين سادة وعبيد، ويونانيين وبرابرة...الخ، ولعلّ أهم مقام يبلغه الإنسان هي الفلسفة أي الحكمة التي حسب تقدير " أفلاطون " تؤهله لقيادة وترأس المجتمع.

وقد نبغ من فلاسفة اليونان عدد كبير ومدارس متنوعة ، وتُعزى ريادة مدارس الفلسفة إلى " طاليس " في ملطية بين [636-544 ق.م]، وإلى جانب كونه فيلسوفا هو رياضي أيضا، تمكن من قياس ارتفاع الهرم في مصر من خلال تطبيق المثلثات المتشابهة [2]

وإلى جانب "طاليس" فلاسفة كثر من أهمهم في تلك المرحلة " فيثاغورس " و"أنبادقليس" ، ومن بعدهم "سقراط" و" أفلاطون" و" أرسطو"، وصولا إلى مدرسة الإسكندرية (مكتبة الإسكندرية) .

ولعلّ أهم من تأثر به فلاسفة العرب والمسلمين من اليونانيين إنما هم " أفلاطون " و"أرسطو"، وفيما بعد " أفلوطين" .

ماذا أخذ فلاسفة العرب من اليونانيين؟

قلنا إن الذهنية العربية في الجزيرة تحديدا لم تكن مهيأة للتفلسف ليس لقصور ذهني أوْ لسبب إثني (عرقي)، كما يحلو لبعض المستشرقين قوله، وحتى غير المستشرقين أيضا.

إذ يرى المستشرق الفرنسي" رينان " على سبيل الذكر أن العقلية السامية (Sémitique) (يهودية،إسلامية)، تتصف بذهنية أو « غريزة توحيدية » منقدحة في أعماقها و تتجلى فطريا، أيْ دون جهد عقلي، واختبار معرفي، وتوليد ذهني من البسيط إلى المركب وهو أمر أشبه ما يكون "بالإلهام الذي أوجدَ الكلام في الإنسانية كُلِّها، والدين والفقه متشابهان في أنّ كليهما ليسا وَضْعِيِيْنِ، بل نشأ لدى الإنسان نشأة غريزيَّة باطنيَّة [3] »

بمعنى أن الذهنية السامية عامة والعربية الإسلامية خاصة، عاجزة طبيعيا، عن إنتاج معرفة معقولية على خِلاف الذهنية [العرق] الآرية، التي تُعْمِلُ العَقْلَ في الوجود، ولا تقف عند حدود المعرفة الاستبطانية أو الإلهامية؛ لأنها لا تؤمن بقوة (إله)، هو الأقوى والأعلم والأعدل، يخضع له ما في السموات والأرض، ويَتَدَبَّرُ شؤُونَ الكوْن، و يُفْضِي بالشرائع والنواميس إلى بواطن خلقه من خلال رسله وأنبيائه وكتبه [التوراة، الإنجيل، القرآن]، وإنما تضطلع بحكم جبلّتها، أوْ ماهيتها الفعالة، في القبض على الحقائق واكتشاف القوانين الطبيعية المتحكمة في الظواهر، عبر الجهد الذاتي والطاقة الخلاقة المتولدة عن نوع العرق الآري .

ونُقفي على رأي " رينان" بما تخيله رفيقه وأستاذه " هكسلي "، الذي زعم بأن كل ما تحقق من علوم وفلسفة (في أثينا)، وأحوازها ولا سيما مستعمراتها، إنما بفضل العقلية غير التوحيدية السامية، في جُزُر النصف الشرقي من البحر الأبيض المتوسط وشواطئه، هذه العقلية (الخميرة العقلية) انسحبت أيضا على المنطقة من بحر إيجة و شمالي الهندستان.

وأيد هذا الموقف المعرفي "جونثان رايت "، بالقول: إن « .. زرادشت في إيران، و كونفوشيوس في الصين، وبوذا في الهند، وطاليس في أيونيا، وفيثاغورس في صقلية، قد نشّطوا جميعا في وقت واحدٍ على وجه التقريب، وفي مناطق تَقَعُ على

خطٌّ واحد، هو خط العرض 35 شمالا، وهو الذي يمر بآسيا الصُّغرى، وجنوبيْ إيطاليا و صقليّة [4] »

وقبل أن نقدم مستقيات فلاسفة العرب من غيرهم نشير إلى الذهنية العربية وعلاقتها بالتفكير عامة والتفلسف خاصة.

لا مراء بأن الحضارة العربية الإسلامية، نشأت في بيئة بدوية صحراوية أهم رباطاتها ومضاربها -البيت العتيق- مكة المكرمة، وقد نسي العرب دينهم القديم دين " إبراهيم" و"إسماعيل" وقد عمّروا أرجاءها بأصنام الآلهة التي حطمها أبوهم " إبراهيم" من قبل.

وجاءتهم اليهودية بالتوراة كما صاغها اليهود أنفسهم، وتسربت إليهم المسيحية من الشمال والجنوب، فأعرضوا عنها إلا القليل، وفضلوا وثنيتهم على الديانات الواردة، إلا فريق منهم وهم الأحناف أو أبناء إسماعيل آثروا أن يظلوا على الحنفية ملّة " إبراهيم" ، ولم يتفلسفوا في إدارة شؤونهم وتنظيم مجتمعهم كما فعل اليونانيون بل اكتفوا بأخلاق الفروسية، و بتقاليد أجدادهم وعرفهم ونطقوا بالحكمة العفوية شعرا ومقامات كأنهم في ذلك على موعد، مع أمر جلل، إنه الانبثاق من خميرتهم، والانبجاس من تربتهم الصافية، و مكارمهم الصادقة.

إنه ميلاد الإسلام، مع البعثة المحمدية المباركة وإذا كان الدين في أصله لله، يتفضّل به عباده دون تمييز ليوحدوه، ويجتمعوا على كلمة سواء فيما يشبه الأسرة الكونية، فإن اليهود يعتبرون الرب إلهًا قوميا مهمته رعاية اليهود وتحصينهم ضد أعدائهم و قد برعوا في اختلاق الأساطير والخرافات لتبرير دعاويهم، بما لا يمكن الإحاطة به عبر مئات الأسفار.

والصهيونية كأحد بطونهم المعاصرة ((قد اعتمدت على عدة ركائز، أهمها أن اليهود يعتبرون حسب التصور الصهيوني أمة واحدة، منحدرة عرقيا من جدٍّ واحدٍ، وأن هذه الأمة تتألف من شعب الله المختار، الذي يعاني من الاضطهاد

والظلم، ولذا فإنه يستحق عطف العالم، وتأييده، وأن السبيل إلى خلاصه هو حشدُه في وطن قومي في أرض الميعاد، والتي لم تنته حتى الآن الصهيونية اليهودية من وضع حدود واضحة لها، فبينما يحددها البعض بفلسطين وشرقي الأردن، يذهب المتطرفون إلى أن أرض إسرائيل تمتد من الفرات إلى النيل [5] . ومادام هذا الشعب مقترنا بإله اليهود "يَهْوَهْ" وله شريعة مؤسسة على قوانين وشعائر وطقوس، تراكمت على مدى أربعة ألاف سنة ومن أهم مرجعياتها التوراة والتلمود، فإنه مخير ومتعال على غيره، بل إن الإله "يَهْوَهْ" لا يتحقق وجوده وسلطانه وعظمته إلا من خلال وجود شعبه المقدس، الشعب اليهودي.

ولما انبثق الإسلام في تلك البيئة الصحراوية، وعن تلك الذهنية البدوية، مخاطبا الفطرة بحجج دامغة وتصور شامل، سنذكر بعض ملامحه لاحقا، اشتبك مع اليهود على حدود يثرب، بالمحاججة والجدل العقلي ولكنهم أنكروه، وقد بشروا به في بعض كتبهم، ولكن جحده البعض وآمن به البعض الآخر، وقد ورد في القرآن الكريم في المشركين ((وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم)) الآية 10 من سورة الأحقاف.

ولعل أعظم هجوم على الإسلام من قبل اليهود، والذي مازلنا إلى اليوم نعاني منه أشد عناء، جاء فيما بعد من أبواب عدّة نقف عند بعضها:

إن اليهود الذين استؤصلوا من "الحجاز" لأسباب تاريخية لا مجال هنا لدراستها بعلمية، حتى لا تتهم البعثة المباركة، بمعاداة أهل الكتاب، والاستعمار، والعنصرية وما إليها من الأقاويل، أقول لما طرد الإسلام بعض قبائلهم، أقاموا "بالشام"، وذهب بعضهم إلى "الكوفة" واستقر بعضهم الآخر في "اليمن" وسرعان ما بدأوا يتوافدون على الحجاز، و كان منهم اليهودي المنبت، وبعض القبائل العربية المتهودة (والتي لم تقبل حقيقة من طرف اليهود)، كما هو اليوم شأن اليهود الشرقيين أمام الغربيين في إسرائيل، والفلاشة تحديدا ونُنَبِّهُ إلى أن بعض أحبارهم

ومواطنيهم، اعتنقوا الإسلام لكن على مضض وعن سبق إصرار وترصد لأمر في نفوسهم .

ولم تنطل حيلهم، لا على سيدنا محمد (صلعم) و لا على أبي بكر ولا على عمر رضوان الله عليهما، حتى إذا جاءت خلافة عثمان بلينه المعروف، وتسامحه لا سيما مع عشيرته، بعد أن أبعد " علي بن أبي" ابن عم الرسول عن الخلافة، بما كان عليه من علم وشكيمة، دخل اليهود، من بوابة الفتنة فأيقظوها من سباتها، ولأول مرة في تاريخ الإسلام الحديث العهد، تنقدح فكرة " الإمام المعصوم"، و" خاتم الأوصياء " من لدن اليهودي عبد الله بن سبأ، وقد وقع الكثير بمن فيهم صحابة رسول الله الصغار في حبال هذا الزنديق، فصدقوه، وسرب بذلك أفكارا خطيرة في الغلوّ والتحريف مازالت سارية إلى اليوم لدى متعصبي التشيع، وليس كل الشيعة، ومن هذه الأفكار ((الرجعة والبداءة، والمهدي والأسباط..)) و يتجلى الغلو والانحراف اليهودي، ((لدى فرقة الكيسانية)) .

ومن الحجاز إلى الكوفة اتّصل اليهود بالمسلمين تحت غطاء اعتناقهم الدين الجديد، ليؤسسوا فرقة " الإسماعيلية " مع بعض المنطلية عليهم حيلهم من العرب المسلمين تحت غطاء أولاد إسماعيل بن جعفر الصادق من أحفاد علي رضي الله عنه.

وبعد تلغيم معسكر علي كرم الله وجهه، تنقل اليهود إلى معسكر معاوية بن أبي سفيان فلغمّوه بدوره. فظهر بعد عبد الله بن سبأ المتشيّع " كذبا "، كَعْبُ الأحبار في معسكر معاوية وبطانته، وكان دوره أقسى وأنكى في دوائر الخليفة عثمان، بحيث زعم أن له " علم الكتاب " وألقى بدلوه مرارا في حضرة الخليفة عمر فلم يفلح لفطنة هذا الأخير.

وتوزعت الأدوار بين الرجلين، كان عبد الله بن سبأ يلعن " دمشق " ويحرض أهل الكوفة على الأمويين في دمشق ويوغر قلوبهم بالبغضاء والحقد،

وبأحقية بني هاشم بالحكم، أما كعب الأحبار، الذي يقال بأنه نصح الخليفة عمر بعدم الذهاب إلى الكوفة، لأنها موطن الشيطان و"الأرواح الشريرة"، فكان يلعن الكوفة، ويقوم مقام عبد الله بن سبأ في إثارة الفتن بين المسلمين .

وبسبب الاختراقات الإسرائيلية للحضارة الإسلامية دخل تحريف كبير لهذه الحضارة، وهو ما يسمى بالإسرائيليات والأحاديث الموضوعة، وذات الأصل اليهودي في مجالات عدة كالإمامة والوصاية والسحر، والتشبيه والتجسيم، ولئن تنبه الكثير من علماء المسلمين وحكامهم لمناوراتهم وألاعيبهم فقد وقع الكثير في حبالهم، ومن بين العلماء النبيهين المتيقظين الشهرستاني " صاحب كتاب " ((الملل والنّحل))، الذي نبه إلى مخاطرهم فقال : ((وأما التشبيه، فإنهم وجدوا التوراة ملأى من المتشابهات مثل الصورة والمشافهة، والتكلم جهرا، والنزول عند حور سيناء انتقالا، والاستواء على العرش استقرارا، وجواز الرؤية فوقا..)) [6]، ومن جهة أخرى لم يقدم تاريخ اليهود القديم، أي أثر معرفي عقلي، ولا رأيا لاهوتيا عالما، بل قدموا مذهبا دينيا، يقرر الوحي أساسه، وهذا بشهادة مؤرخيهم و أكبر مستشرقيهم [مونك] .

ولم يعرف اليهود التفلسف، إلا ضمن حضارة العرب في الشرق، وفي الأندلس، وفي الغرب عموما، بل إن اللغة العبرية جرى تقعيدها نحويا، من منطلق تقليد النحو العربي، قديما وحديثا .

غير أن الدّسَّ والزعم اليهودي ذهب إلى القول بأن ثمة علاقة بين أنبياء بني اسرائيل وفلاسفة اليونان، بل إن هؤلاء أخذوا عن معدن النبوة الحكمة والمعرفة اليهودية .

الموقف الإسلامي من المسيحية

بعد مواجهة الإسلام لليهودية الدين السماوي الموحّد، كالمسيحية والإسلام، إلا أنه مغال ومغلق لا يعترف بغير اليهودية دينا وبأنبياء بني إسرائيل دون سواهم

حتى إنهم أنكروا آخر أنبيائهم عيسى بن مريم عليه السلام فكذبوه، واضطهدوه، ونكلوا به، وحاولوا قتله وصلبه وكما جرى مع موسى الذي عُدَّ "المخلص" إذ أن كلمة موسى في العبرية هي وصف تحولت إلى اسم، ومعناه مخلِّص الشعب اليهودي القومي، وكثيرا ما يتماهى موسى بالله عزّ وجلّ، فهو مجسد أحيانا للذات العلوية "في الزمكان"، من أجل الدفاع عن قوم اليهود، هذا القوم المختار على باقي الخلق.

وهي الصفة التي ألصقت فيما بعد بعيسى عليه السلام، إلى أن أصبح هو ابن الرب، من خلال التأويل المعكوس لمعجزة ولادته، فتعدد التوحيد إلى ثلاثة الرب والابن والروح القدس، وكثيرا ما جسّد عيسى بن مريم في نظر المسيحيين، هذه الأطراف الثلاثة معا.

وإن كان الإسلام أكثر لينا مع المسيحيين مقارنة باليهود، وأقرب إلى المعاملة في البدء، لكن اشتد معهم الجدال بعد انتقال المواجهة بين الطرفين من "نجران" أين التقى الرسول محمد (صلعم) بوفد من النصارى، فيما يعرف بقصة "المباهلة"، فأفحمهم بالحجة في قضايا عديدة، وبنص قرآني واضح ، وبمقاربات روحية، وأخرى عقلية تنزه الله عن ربوبية المسيح، وتضع آخر أنبياء اليهود، عيسى في مساره الحقيقي كأحد أنبياء الله ، له معجزات وهبها إياه المولى، بدءا بمولده، ونزّه والدته مريم عن كل فسوق، وأن رسالته ربانية جاءت رحمة وردّا على قسوة قلوب اليهود وانحرافهم في التوراة والتلمود .

ورفع الإسلام كذلك اللُّبْسَ عما لحق بعيسى من خوارق وأكاذيب وخرافات، وصحح القول بأنه لم يصلب من قِبل أعدائه، بل رُفع إلى السماء، وأن محاولة قتله أو صلبه لا يمكن أن تكون، فدية لكل المذنبين في الأرض، فثبَت الإسلام المسؤولية الفردية على ما يُقترف من ذنب فوق الأرض ((فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره))، [الآيتان 7،8 من سورة الزلزلة] وهي قاعدة عقلية

اعتمد عليها التشريع السماوي والوضعي معا، في إثبات المسؤوليات وتطبيق الأحكام .

وقد ذهب المتطرفون من اللاهوتيين فيما بعد، إلى حدّ القول إن عيسى قد افتدى خطيئة آدم في الجنة ومن ثم فهو آدم، وأمه بمثابة حواء، ولكن حوار علماء الإسلام وعلماء المسيحية سيشتد ويحتد فيما بعد.

علماء الإسلام في مواجهة الفلسفة اليونانية،اليهودية، والمسيحية وعقائد الشرق القديمة

لم تتوطن الديانة اليهودية بالقدر الكافي، ولا المسيحية، ولا معارف اليونان، في البيئة العربية إلى وقت البعثة المحمدية ، ولكن الحضارة العربية الإسلامية الناهضة في توسُّعها لغير العرب على اعتبار أن الإسلام جاء للناس كافة، قد التقت مع حضارات أخرى فتفاعلت مع لغاتها وأفكارها، وشرائعها ونظمها، وآدابها وفنونها ((.. وكما ورِثتِ المسيحية الإمبراطورية الرومانية ميراثا استطاعت مَدَّ مسيرته وإطالته، فقد تمكن الإسلام في مطلع نشأته، من الاستيلاء على الشرق الأوسط، الذي كان وقتذاك من أقدم- إن لم يكن- ملتقى للبشر والممالك المتحضرة في الدنيا..)) [7]

هكذا إذن توسع مجال الدولة العربية مع الفتوحات، إلى خارج البوتقة العربية في الجزيرة، فكان لزاما على العرب أن يُؤثروا ويتأثّروا بثقافات غيرهم، فأخذوا بفلسفة اليونان، وبحكمة الفرس ونظمهم، والروم وتراثهم، والهند، ثم أوروبا في شرقها وغربها على السواء .

إن أهم مصادر العرب من فلسفة اليونان وعلومهم، استقوها من مدرسة الإسكندرية، التي لم يأمر عمر بن الخطاب بهدمها كما زعموا إطلاقا، وهي المدرسة التي انتقل إليها علماء اليونان (أثينا) تحديدا هربا من الاضطهاد، إلى

التسامح الشرقي، وقد تعرف إليها العرب حتى قبل الفتوحات، ونشطت حركة ترجمة وشروح لما في هذا التراث عن عموم المعارف الموجودة، [الفلك الطب، الرياضيات، الفلسفة، السحر..]. وانتقل التعليم منها إلى أنطاكية في زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز حوالي 99 هجرية ومنها إلى حران وتفرق في البلاد العربية بعد ذلك .

باختصار، اطلع فلاسفة العرب الأولون، على تراث اليونان وهضموه، وشرحوه وأضافوا إليه في مضارب عدّة، وعارضه البعض معارضة شديدة سواء من الفلاسفة كالغزالي مثلا أم من أصحاب العقائد والفرق، خاصة في التوحيد من المعتزلة المتفلسفين ، وسمح العرب للأساتذة النّساطرة، واليعاقبة بالتدريس، والترجمة وتحلوا بكل تحرر وتسامح في اتجاه الأديان والأعراق الأخرى في سبيل ترجمة ونقل وتطوير علوم الأمم التي فتحوا أمصارها ، ومن رواد الفلاسفة العرب "أبو يوسف يعقوب الكندي"، الذي اهتم بفلسفة أرسطو، وتبين منها الاختلاف مع عقيدة الإسلام، فسعى إلى التوفيق بين الرأيين، ولم يجد غضاضة في إبانة التناقض الداخلي لآراء أرسطو حول قدم العالم وخلوده وفنائه ، فأرسطو يرى بقدم العالم [لا أول له ولا آخر] من الوجهة الزمنية ، لكنه في نفس السياق يعتقد، بأن له آخر من الوجهة المكانية فانتقده "الكندي" بتلازم المكان والزمان، وقياسا عليه، فإن الذي يتناهى في المكان يتناهى في الزمان أيضا [8] وبالتالي فالعالم مخلوق أيْ معلول لعلّة أولى هو الله .

وقد جارى "الكندي" في تدبر العلوم حُكماء اليونان، فاهتم بالرياضيات، والطبيعيات والموسيقى، والطب...إلخ. ولم يألُ جهداً في نَقْدِ رجال الدين المتزمتين، المتاجرين بالعقيدة، وقد وظف الكندي المنطق الأرسطي والبراهين العقلية لإثبات أو دحض ما يطلب بلوغه.

واختص الفارابي في فلسفة اليونان، وتمثلها بكل أبعادها، وقال بنظرية الفيض الأفلوطينية (الغنوصية)، واعتمد المنطق الأرسطي وبقي مؤمنا بدينه، وربط العلم النظري بالعمل، لتحقيق السعادة في الدارين، فقرن بين التفكير الفلسفي كامتناع ذهني تأملي قاده إلى الزهد، وبين سعادة الإيمان كعمل وممارسة ارتقى به إلى الفضيلة- فتآلف لديه الاستئناس بالانتظام الفكري في عالم الكائنات التي يكمل نواقصها الإيمان، لتستوي بالفلسفة الغاية في معرفة الخالق، بوصفه الواحد والحكيم والعادل.

ومن ثم فإن الفلسفة برأيه هي البحث في واجب الوجود وهو أمر لا يتعارض مع الوحي أوْ القرآن الداعي إلى التأمل والتفكر والنظر، فبلغ الفارابي إلى التوافق بين النقل والعقل، وبين الفلسفة والوحي- منطقيا ووجدانيا- وبذلك لم يغض الطرف عن الأخذ من الآخر [الوثني]، حكمته، ويظل على إيمانه بالوحدانية، وبعقيدة الإسلام السمح .

ولنا أن نقول مثله، والاستزادة فيه، بشأن الشيخ الرئيس ابن سينا، الذي قبض على علوم عصره، الأصيل فيها والوارد من علماء الأمم الأخرى،فدرس الفقه والأدب وحفظ القرآن، وأتى على المنطق الأرسطي، والأخلاق، والطب فأبدع وصنف فيه، وتولى دراسة الفلسفة [ما وراء الطبيعة]، واطلع عموما على علوم وفلسفة اليونان، فنخلها درسا وتحليلا ونقدا، حتى اكتمل له الرأي والقول فيها برؤية أصلية، فوطن معارف الآخر فكرا ولغة، ولم يغترب عن عقيدته، فواءم بين النقل والعقل والحكمة والشريعة، والنظري والعملي فوضب تفكيره وتصنيفه للحكمة بطريقة منطقية ورياضية لا لبس فيها، فاعتبر الحكمة نوعين:

1 ــ حكمة نظرية ، وتتفرع إلى: حكمة طبيعية ،حكمة رياضية ، حكمة إلهية .

2 ــ حكمة عملية : وتتفرع إلى: حكمة مدنية ،حكمة منزلية ،حكمة خلقية. [9]

فجاءت فلسفته متكاملة متسقة على ألحاء الوجود المتعين والمفارق، ولم يُخْفِ إعجابه بحكمة اليونان وعلومهم، ولكنه لم يذب فيها أوْ يُستلب، فأخذ منها ما يجعل من علمه متسقا مع فكره العربي، وعقيدته الإسلامية.

وبدون عقدة، أوْ تَحَيُّزٍ، نهل العلم العربي من كل مشارب المعرفة، فما يقال عن هؤلاء الفلاسفة السالف ذكرهم، يقال عن لاحقيهم في مشارق البلاد العربية، ومغاربها، من الغزالي، محيي علوم الدين، وحامي العقيدة، والداعي للتصوف غير المغالي، والمُجيزُ لعلم المنطق فيما تتيحه حدوده. إلى ابن حزم الأندلسي، صاحب طوق الحمامة الشهير، الذي يأخذ بالمنطق في تحصين العقل من الزيغ، في مؤدى إدراك الحقائق، ويأخذ بالدين (كأساس للأخلاق) نصًّا وحديثا، معتبرا أن تحقيق السعادة في الدارين يتم بالتآخي والجمع بين العقل والروح، إذ الإيمان الصحيح يتم عبر إعمال العقل المتأمّل في نظام الكون وأسرار الوجود، ومن ثم لا تعارض في مجال المعرفة، بالنقل والعقل معًا.

ومن أشهر فلاسفة العرب، أبو الوليد ابن رشد الشارح الأكبر لأرسطو، والمؤسس لفلسفة عقلية ستثمر فيما بعد في تربة الغرب، وتعمر إلى اليوم.

لقد أبدى ابن رشد من التسامح في اكتساب معرفة الغير الكثير، ملتمسا لهم الأعذار إن أخطأوا، فيقول ((... سواء كان ذلك الغير مشاركا لنا في الملة [الدين]، أوْ غيْر مُشاركٍ..)) (10)

ويضيف ابن رشد في رده على المتشددين من المتكلمين والفقهاء المسلمين الذين كانوا يعارضون الأخذ بعلوم الأوائل، ممن سبقوا المسلمين، وهو في ذلك يؤسس لعالمية المعرفة وإنسانيتها من خلال التواصل والتراكم بين الأمم والأحقاب الزمنية، وتخصيب الحديث بالقديم على اعتبار أنّ بُلوغَ الحقيقة في العلوم العقلية/ كما يقول ، ابن رشد ((إنما يتمّ لنا في الموجودات بتداول الفحص عنها واحدا

بعد واحدٍ، وأن يسْتَعِينَ في ذلك المتأخر بالمتقدم)) ، إلى أن يقول ((... ويجبُ علينا إن ألفينا لمن تقدمنا من الأمم السالفة في الموجودات واعتبارا لها بحسب ما اقتضته شرائط البرهان أن تنظُرَ في الذي قالوه من ذلك وما أثبتوه في كُتُبهم، فما كان منها موافِقاً للحق قَبِلْناهُ منهم و سُررْنا به، وشكرناهم عليه، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه، وحذّرنا منه وعَذَرْناه ..))[11].

والملاحظ أن ابن رشد الذي تصدى للفيلسوف الغزالي بكتاب "تهافت التهافت" ، على مؤلف الغزالي"تهافت الفلاسفة"، وفي خصومات ابن رشد مع أصحاب النظريات [المتزمتة] بتقديره في مواقفها من الحداثة، المعارضة لاعتماد معارف الغير يرتقي بالتسامح إلى مستوى العدل والإيثار كما يرى محمد عابد الجابري دون عقدة، وهي الرؤية والتصور الجريء الذي نَدَرَ عنْدَ كافّة فلاسفة الغرب، من اليونان إلى اليوم تقريبا، ما عدا استثناءات [...] .

بهذه الروح العلمية، والإيثار الإنساني، أخذ " ابن رشد" المعرفة (كضالة المؤمن) من سابقيه، ولم يشهد في ذلك غضاضة وهو ما بَوَّأه لأن يَغْدُوَ أكبر شُرّاح أرسطو، وأنفذهم إلى فلسفته دون انسلاخ، ولا استلاب عن روحه العربية المسلمة، ودينه القويم، وقد كابد في سبيل آرائه الإنسانية المتنورة اضطهاد المتعصبين من المسلمين ومن المسيحيين على السَّواء، مما اضطره إلى الهجرة القسرية من الأندلس إلى مراكش بالمغرب الأقصى.

وتخبرنا كتب" ابن رشد"، عن مدى تأثره بفلاسفة اليونان، وبمدى فهمه لهم وتصحيح آرائهم، والإضافة إليها، ما جعلها مكتملة، استطاع فلاسفة النهضة الأوروبيين، بعد ترجمتها إلى العبرية واليونانية، ثم إلى اللغات الأوروبية الحديثة من بناء النهضة الغربية الحديثة والمعاصرة، برؤية معقولية، مناهضة، للرؤية الكهنوتية لعصور الانحطاط الغربي.

إسهام العلوم العربية في نهضة الغرب

اطلع علماء العرب على النظريات المتفرقة " لفيثاغُورس" [580 ق.م-497 ق.م] في الفلك والرياضيات والأسرار، وهي حالة عقلية متطورة جداً في ذلك العصر، كون الإنسان قد خطا خطوة جبارة على طريق التجريد والبرهنة الرياضية على المظاهر الطبيعية، وهو ما أثر إيجابا في الفلسفة والمنطق.

ومن المعلوم أن " فيثاغورس"، تعلم الفلك والرياضيات والسحر الكهنوتي في الشرق، حيث أقام مالا يقل عن أثنى عشرة سنة في مصر يدرس فيها، وأقام ببابل نفس المدة، حتى اكتملت لديه معرفة كبيرة، بما كان لهاتين الحضارتين من تقدم . فالألواح السومرية القديمة، كما جاء في مؤلف الموجز في تاريخ العلوم عند العرب « تحتوي أقدم الألواح السومرية على جميع أنواع الجداول العددية... وكان نظامهم العددي مرتبطا بتقسيم الأوزان والمقاييس، وأحرزوا تقدما كبيرا في علم الجبْر، فعرفوا معادلات الدرجة الأولى والدرجة الثانية، والدرجة الثالثة. » [12].

ولا يقل المصريون القدامى شأنا عن البابليين، في العلم الرياضي، ويتجلى ذلك في بناء الأهرامات، بقدرة هندسية فائقة، وقد شهد لهم "أرسطو" وتعلم على أيديهم "طاليس" و" فيثاغورس" وأفلاطون ."[13].

وقد اطلع العرب على نظريات فيثاغورس، بما في ذلك النظام الكوني عنده، وموسيقى الأفلاك [فالعالم برأيه يغنّي لأنه عددٌ وانسجامٌ و نغم]

وقد تحدث الشهرستاني في" الملل والنحل" عن نظرية فيثاغورس في الأنغام الفلكية، ولا نستبعد تأثيره البيّن في أفلاطون، وفي الصوفيين من المسيحيين والمسلمين، على اعتبار أن الحقيقة كامنة في علم العدد، أي في الرياضيات .

وقد تعرف العرب على المدرسة الذرية لصاحبها [لوقيبوس] ، وتلميذه ديموقريطس ، وهو يوناني جال بالعالم الشرقي القديم، كمصر والحبشة، وبابل

وفارس والهند، ويفسر المعرفة باجتماع الذات وتفرقها في الفضاء، [وهي الجواهر والملأ والوجود] .

وما جسم الإنسان إلا ذرات تجتمع في أماكن معينة منه، أرقاها توجد في الدماغ فينشأ عنها التفكير، ثم في القلب وينشأ عنها الخيال، وفي الكبد وتنشأ عنها العاطفة، وبذلك فسر ديمقريطس العمليات العقلية والانفعالات والصور وسائر الظواهر، ذرّيّاً ماديا، لا أثر فيها للتدبر العقلي.

الحساب و الجبر

قلما اهتمت أمة بالجبر والحساب كما اهتمت به أمة العرب، ومن أعلامها، محمد ابن موسى الخوارزمي، صاحب كتاب[الجبر والمقابلة] وبإجماع العلماء أن علم الجبر كما أبدع فيه الخوارزمي، لم يسبقه إليه أحد، رغم معرفة الحضارات القديمة في بابل ولدى الهنود حل بعض معادلات درجة أولى وثانية، فالخوارزمي فصل الجبر عن الحساب، وأسس له بعلم متماسك نافع.

وتوالى علماء الحساب والجبر العرب، فحلّوا المعادلات من الدرجات الأولى والثانية والثالثة والرابعة، وأدركوا العلاقة المتينة بين الجبر والهندسة، [فاستعملوا الأساليب الجبرية في حل العمليات الهندسية، والطريقة الهندسية، في حل الأعمال الجبرية، فسبقوا بذلك "ديكارت" واضع أصول الهندسة التحليلية] (14).

ولا يتسع المقام هنا لذكر كل إنجازات العرب الجبرية والرياضية، والعلمية الكثيرة.

وباختصار قفز العرب بالرياضيات مثلا خلال القرنين التاسع والعاشر، بعد أن كانت خليطا مشوشا لا يفي بالغرض ، وقسموها إلى ما يسمى عندهم علوم التعاليم، منها الحساب، الجبر، الهندسة، الحيل، وعلم الهيئة وكل منها يحتاج إلى تبيان و شرح .

كما أن العرب اهتموا بعلم الطبيعة، ولا تخلو إسهامات فيلسوف عربي من الطبيعيات، كما في رسائل الكندي، وإحصاء العلوم عند الفارابي، والمدينة الفاضلة، وفي الشفاء عند ابن سينا وفي الجماهر عند البيروني، وفي سر الأسرار عند الرازي، وفي رسائل إخوان الصفا...الخ.

الموسيقى كعلم وفن :

لقد اعتنى العرب بعلم الموسيقى، ولهم فيها مصنفات عديدة، ويعزى إليهم أنهم هم الذين جعلوا للموسيقى علما له أصوله وقواعده الرياضية، وصمموا له الآلات، ومن أشهر أساتذة الموسيقى العرب بعد الموصلي، زرياب الذي أثر في الموسيقى الغربية لقرون من الزمن في الأندلس.

وبما أن القانون آلة عربية، فالبيانو ابن القانون، وما يقال عن الموسيقى يقال عن الكيمياء، التي حررها العرب من السيمياء، وأدخلوها إلى فضاء التجارب، ولهم فيها اكتشافات ينوء بها المقام عن الذكر والتفصيل، وقد تنوع وتعدد علماؤها من العرب، ولعل أشهرهم جابر بن حيان، الذي قال عنه " برتيلو"« إن لجابر بن حيان في الكيمياء ما لأرسطو في المنطق »، لكونه أخضع الكيمياء إلى التجربة الحسية، ولم يكتف بالفروض والتحليلات النظرية.

الطب والصيدلة :

أما الطب والصيدلة فتلك تكاد تكون نحْلةٌ عربية، لفرط اهتمامهم بهما معا، درسا و تجريبا، وتنظيرا وتطبيبا، ولقد حرروا الطب من السحر والتعاويذ، والتنظير الذهني بما كان عليه سابقوهم من الأمم فشيدوا له المدارس، والمستشفيات [بمارستانات] وهم أول من استعمل " التخدير" Anesthésie"، وبعد أن اطلعوا على تجارب اليونانيين والهنود وقدماء المصريين، انتقدوهم وعلقوا

على آرائهم خدمة للعلم الصحيح، ومن أشهر أطباء العرب الرازي وابن سينا وابن النفيس، في الشرق، و"الزهراوي"، وأسْرة ابن زهر بالمغرب .

العلوم الإنسانية

أما في الآداب والعلوم الاجتماعية والإنسانية، فلا ينكر فضل العرب إلا جاحد ، ويكفي في علم التاريخ أن نذكر أبا جعفر محمد بن جرير الطبري، [838م- 923م] ، الذي تمكن بفضل علمه، واتساع معارفه، وإطلاعه على الأقوام والأمصار، أن يفرض نفسه كمرجع للتاريخ القديم العربي وغير العربي، بما اجتمع إليه من علوم فقهية وشرعية، وآداب، وأنساب، فامتاز بالحياد والدقة في التوصيف والأمانة في السرد، والتمحيص ما يجعله صعب المراس في انطلاء حيل البعض عليه وخاصة الإسرائيليات .

ويُوعَزُ أمر تنظيم علم الأخلاق إلى "أحمد محمد مسكويه"، فوضع مؤلفه المميز "تجارب الأمم"، «فقد أخضع التطورات السياسية للتحليل والتدقيق، ليخرج منها بنتائج هي أقرب ما يكون إلى القواعد والأسس السياسية الاجتماعية»[15].

كما يُعْتَبَرُ أبو" الحسن علي"، المعروف بالماوردي [974م-1058م] واضع الفكر الدستوري، من خلال اضطلاعه بدراسة مبدإ الحكم وسوس الرعية، وإدارة شؤونها، وصياغة الأسس التشريعية لذلك في الخلافة أو الإمامة، دون أن يلتزم بدولة بعينها، ومن قضية الخلافة وحاجات المجتمع الماسة إليها ينتقل الماوردي إلى دراسة «مقاصد الخلافة » قائلا: " الخلافة أو الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين والسياسة. [16].

ونذكر بعد الماوردي، أبا محمد الشريف الإدريسي، واضع الخارطة العالمية، وياقوت الحموي منشئ المعجم الجغرافي، والمقريزي المؤرخ العالمي المسلم، وابن خلدون منبع علوم شتى وبخاصّة علم الاجتماع.

ناهيك عما أبدع العرب في علوم الفقه الذي لم يسبقهم إليه أحد ليغدو هويتهم المعرفية ومرجعيتهم الدينية تنتظم بقواعده العلمية الدقيقة المؤسسة على العلوم البرهانية وأرضية ذلك علم أصول الفقه ، ويجيب على تساؤلاتهم الغيبية أيضا في تصالح بين الحكمة والشريعة .

المنهج:

قبل قول كلمة في منهج العرب الأصيل والأصلي في تتبع المعرفة وابتغاء مقاصدها نذكر جملة للمؤلف المستشرق الفرنسي المعروف " قوستاف لوبون – Gustave Lebon "، « les influences de la civilisation islamique en occident » " أثر الحضارة الإسلامية في الغرب"، يقول: "إن المكتبات، والمخابر، والأدوات، ما هي إلا مواد ضرورية للبناء والبحث، إلا أنها في النهاية مجرد مواد لا أكثر، وقيمتها مرهونة فقط، بالطريقة التي نستعملها بها إذ بإمكاننا أن نمتلئ بعلم الغير، إلا أننا لا نستطيع أن نفكر بأنفسنا أو نبدع شيئا ما بمعنى بإمكاننا أن نكون مضاهين للآخرين لكن لا نستطيع أن نكون سادة أو معلمين "(17).

أعلن " أرسطو" أن النظر للسادة والتجربة للعبيد ، وهو دليل على أن اليونانيين اعتمدوا المنهج الاستدلالي وانتهج العرب المنهج الطبيعي الاستقرائي الذي أخذ به فيما بعد " روجي بيكون " في أواخر العصر الوسيط، ثم " زبريلا – Zbarella "، في عصر النهضة في كتابه (المنطق) [1578] ومن إليهما، إلى أن بلغ أشده في القرن السابع عشر، مع فرانسيس بيكون في مؤلفه الشهير « الأورغنون الجديد – New organon » [1860]، ثم اكتملت معالم هذا المنهج مع لاحقيه أمثال " جون ستيوارت مل، في كتابه « the system of logic » وبذلك أحكم المنهج التجريبي، واستبد بالبحوث والدراسات العلمية بشقيها الطبيعية والإنسانية، ليسهم بشكل فعال في تقدم المعارف في الغرب ويؤصل للتراكم والتوليد، والتطور

داخل العلوم الجنيسة، والوسيطة والعلوم المقابلة، وتطرف بشأنه بعضهم من علماء الوضعية، والتطورية والمادية إلى درجة نفي كل ما هو نظري باعتباره مثاليا.

وعلى الرغم من كونه منهجا عربيا في أصوله وعلياته، إلا أن نكران علماء الغرب ومؤرخو العلوم من ذويهم، لا سيما المستشرقون منهم، ضنوا على العرب بأصالة هذا المنهج ، ونسبوه لأنفسهم.

وأكثر من ذلك نفوا عن العرب أيّ إسهام في الحضارة الإنسانية، كما يقول أحدهم " هونريش بيكر " [1886- 1933] ، فيما يتعلق بعقده مقارنة بين حضارة اليونان الإنسانية النزعة، وحضارة (الشرق)، والعرب تحديدا العقلية الخالية من الإنسانية، فيقول :« إن كل شيء بقي عمليا كما كان من قبل، ولم يتغير شيء سوى أن وثائق الدولة والإدارة التي كانت تُكتبُ، من قبل، باليونانية أو الفارسية، أو القبطية، أصبحت تكتب آنئذ بالعربية دون أن يغير الإنسان شيئا جوهريا في الإدارة » (18)

وعلى عكس هذا الفيلسوف ، وغيره كثيرون، يقول غوستاف لوبون "في مؤلفه السالف الذكر « نلحق عادة " ب باكون- التجربة والملاحظة، بوصفها أساسا للمناهج العلمية المعاصرة، والحقيقة أنه يجب أن نعترف اليوم، بأنها تنسب كلها إلى العرب، ويُضيف الكاتب نقلا عن " همبولدت- Humboldt "، قوله: (لقد سما العرب إلى هذا المقام الذي يكاد يكون غير معلوم لدى السابقين عنهم)(19).

وإذ لا يتسع المقام للخوض في الجوانب المنطقية للمنهج الاستقرائي التجريبي، بوصفه تأمليا إدراكيا، اكتشفه العرب في مواجهة منطق اليونانيين، فأخذ به فلاسفة وعلماء الغرب بعد مئات السنين، وأهم من تميز به التطوريون، كجون ستيوارت ملْ، الذي يكون قد شعر بهذا الانتحال [السرقة]، فراح يبرئ نفسه من الجريرة، بما هي أسفٌ منها « ومن الغريب أن نجد هذا العالم التجريبي يَسِفُّ إلى

حدّ تضمين بعض أمثلته المنطقية تشهيرا بالرسول العربي محمد (صلعم) في كتابه [a System of logic] » [20]

نستنتج مما تقدم على ابتساره، أن المعرفة شراكة، بين الأمم والأجيال، يتقاسم فيها شرف الإبداع والتجريد والاختراع، بالعدل والقسطاس، كل من أسهم فيها، وشيد صروحها، ولوْلا المتقدمون، ممن وضعوا اللبنات الأولى، لما تجاوزهم التابعون، ولما استمر التطور، والارتقاء باطراد، وتلك فِطْرةُ الله التي فطر الناس عليها، وناموس أزلي وفاه المولى في عباده .

لكن البؤس، أن تنكر أمة، دور غيرها، وتضنّ عليها، فتبخسها أشياءها، وما ذلك من المروءة أو الموضوعية والعدل بمكان.

ترى ما الذي يضير الغرب اليوم في تقدمه العلمي والتكنولوجي وهو شأن محمود ينعم بفضائله كل ساكني الأرض من الاعتراف بأفضال الأمم السالفة بمن فيهم العرب تحديدا لا سيما في مجال إرساء الأسس العلمية والعملية لهذه الطفرة؟

وما العيب في القول اليوم أن يكون الفيلسوف المثالي الكبير " إيمانويل كانط " ومواطنه هاردر قد تأثرا بابن رشد ، وهو الذي فتح عقليهما على إشكال معرفي أرق المعرفة عموما والغربية تخصيصا قرونا من الزمن ، وأقصد بذلك مسألتي العقل والوجود ، وهي الإشكالية التي انشغل بها الذهن أمدا طويلا بين "إذا كان العالم قديما أزليا وهذا رأي الفلاسفة أم أنه حادث مخلوق من عدم كما يقول المتكلمون "؟[21]، وقد كان رأي ابن رشد في مسألة أزلية العالم أو حدوثيته طريفا نافذ التفكير عميقا إذ يقول " لا أنه قديم ، ولا أنه حادث ، بل دائم الحدوث أو أنه في حدوث دائم "[22].

ورأى ابن رشد عين الرأي في العقل، من حيث هو دائم الحدوث على اعتبار أنه " إذا كان القول بأزلية العقل الهيولاني وأزلية المعقولات ـ المفاهيم

الفلسفية ـ يؤديان إلى القول بخلود النوع الإنساني ، فإنه لاشيء يمنع من قبول ذلك ، خصوصا إذا فهمنا الخلود على انه الحدوث الدائم "[23].

وتؤدي بنا فكرة الحدوث الدائم بدورها إلى فلسفة التاريخ المبنية على فكرة التقدم الدائم وذلك لأن " التقدم يسري عبر التاريخ بخطى بطيئة ولكن متصلة ... وهو يتحقق في النوع الإنساني "[24].

ويتحقق ذلك على مستوى النوع لا الفرد ، وهي الفكرة التي جادل بشأنها "هاردر" صديقه " كانط " ناكرا عليه وعلى من تقدمهم من فلاسفة الأنوار قولهم الذي غدا مأثورا بتفوق الحضارة الأوربية على غيرها من الحضارات مؤكدا على ضرورة النظر إلى كل منها من زاوية أنها تحمل في نفسها غايتها ، وليست مجرد حلقة في سلسلة أو هي كم مهمل، ومما قاله في نقده لكانط : " ينبغي ألا نترك فلسفتنا للتاريخ تقوم بمغامرة على شعاب فلسفة ابن رشد "[25].

وما كان من كانط إلا تبرئة فلسفته من العنصرية معترفا فوق ذلك بفضل ابن رشد ، مؤكدا على أن ليس بإمكانه القيام بمغامرة على شعاب فلسفة ابن رشد بالقفز عليها والزعم بأن النوع الإنساني يتحقق في الفرد ، بل رأى بأن الفرد يمكن أن يتطور بتؤدة إلى أن يتحقق فيه النوع .

بحثا عن أرضية معرفية عربية غدوية ؟

ليست هذه الصفحات عن دور العرب المعرفي الخالد تبريرا لعجزنا الحالي في بعث نهضتنا ولا عزاء للنفس المعطلة في التخلف بالعودة إلى الأسلاف ومآثرهم وإنما تستهدف قدح الذهن المسكون بالهوان ، وتستنهض العزيمة الواهية ، وتهزهز الهمم الخاملة لتأخذ بسلطان العلم من أصوله لا بنتائجه ، وترجع النظر لتستبطن الأنا الحضارية ، وتستقري طاقاتها الكامنة، وتصهر الفكر بالعمل والقول بالفعل والمجرد بالمتعين، والديني بالدنيوي، وتربط ماضي الأمة بحاضرها، ربطا

جدليا متجاوزا للقطائع الحضارية. وأجزم بأن شروط النهضة في أمتنا كإمكان لا ينقصها إلا بعث الإنسان العربي بالعلم والإيمان وبالحرية والعدل، وبتوحيد الجهود والثروات في خدمة القضية المقدسة، وتأسيس وعي جديد خارج عن سلطة قهر الحكام واستبداد العصب، والسقوط في أتون التمزق والتشظية؛ بسبب المذهبيات والنعرات، والكف عن الاستهتار بثروات الشعوب العربية وارتهانها للتدمير الذاتي تحت شعارات مفبركة في مخابر الآخر .

الإحـــالات :

1- الشهرستاني، الملل والنحل، ج.1 ص. 237 .

2- عكاوي ، رحاب : ابن النفيس ، علي بن أبي الحزم القَرشي (جالينوس العرب)، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ط.3/ 2001، ص.13 .

3ـ النشار، سامي : نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، الجزء الأول، دار المعارف ، مصر ، ط5، 1971، ص.32.

4 ـ عكاوي ، رحاب : ابن النفيس ، مرجع سابق : ص 13 .

5 - د.إسماعيل ناصر العماري، نقد النصّ التوراتي، دار علاء الدين، دمشق، سوريا، الطبعة الثانية ، 2009 ص.21

6 ـ نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، مرجع سابق ، ص 58 .

7 - فرناند بروديل : تاريخ وقواعد الحضارات ، ترجمة وتعليق ، الدكتور حسين الشريف ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1999 ، ص ، 37 ، 38 .

8 - راجع د/ محمود قاسم، نصوص مختارة من الفلسفة الإسلامية، الطبعة الثالثة، مكتبة الأنجلومصرية، 1969، ص.15.

9 - د/ محمد شطوطي، د/ عبد العزيز بن يوسف، العقل والنقل عند الفلاسفة المسلمين، دار الجزيرة للنشر والتوزيع ، الجزائر 2006ص. 54

10 - نص لابن رشد أورده، د/ محمد عابد الجابري، في كتابه " قضايا في الفكر المعاصر "، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، الطبعة الثالثة، 2007، ص.25.

11 - المرجع السابق، ص.22

12 - د/ محمد عبد الرحمان مرحبا، الموجز في تاريخ العلوم عند العرب، تقديم الدكتور جميل صلبيا، دار الكتاب اللبناني، بيروت،لبنان ، الطبعة الثالثة، 1981، ص 21 .

13 - المرجع السابق، ص.22

14 - المرجع السابق، ص ، 129/ 130

15 - نقولا زيادة، قمم من الفكر العربي الإسلامي، الأهلية للنشر و التوزيع، بيروت، لبنان، 1987، ص. 65 .

16 - المرجع السابق، ص .89.

17 - Dr. Gustave Lebon , les influences de la civilisation islamique en occident, Edition âge d'or, 2004, p.7

18 - من محاضرة ألقاها المؤلف في مارس 1931ببرلين، ترجمها د/ عبد الرحمان بدوي من الألمانية، في كتابه، التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، دار النهضة العربية، القاهرة، الطبعة الثانية سنة 1965، وبكون، فيلسوف، سياسي ، و هو من المستشرقين .

19 - نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، مرجع سابق، ص.26

20 - G. Lebon op.cit p.8

21 - ـ محمد عابد الجابري : التجربة الألمانية والتجربة العربية اتصال وانفصال ، من مقال : ابن رشد يفتي كانط، ص 364

22 - المرجع نفسه : ص 364 .

23 - المرجع نفسه : ص 365 .

24 - المرجع نفسه : ص366 .

25 - المرجع السابق : ص ص368 .